مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيْمِ لِلْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ

جَزَالَةُ الخِطَابِ وَبَرَاعَةُ السَّبْكِ فِي الخُطْبَةِ الفَدَكِيَّةِ للسَّيِّدَةِ فَاطِمَةِ الزَّهْرَاءِ ﷺ

نسرين أحمد يوسف صالح[1]

١ جامعة حلب / كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة / قسم اللُّغة العربيّة,سوريا؛ nesrmtv@gmail.com
دكتوراه في اللُّغة العربيّة / مدرّس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٣/٢/١	٢٠٢٣/٢/٢٧	٢٠٢٣/٣/٣١

المجلــد (١٣) العــدد (٢٥)
رمضان ١٤٤٤هـ-آذار٢٠٢٣م

DOI:
10.55568/t.v13i25.86-108

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث:

توفرت للخطابة منذ عهد النبوة أهمّ مقوماتها، وعناصر نجاحها، وحضور دواعيها، وجاءت خطبة السيدة فاطمة الزهراء ﷺ من أكمل الخطب بعد خطب النبي محمّد ﷺ، ويدرس هذا البحث جزالة الخطاب، وبراعة السبك في الخطبة الفدكية التي ألقتها السيدة فاطمة الزهراء، وهدفه تقصّي مختلف العلاقات التي تربط بين أجزاء الكلام، ووصف الأساليب التي تتحكَّم في معظم أجزاء الجمل، وتجعلها مسبوكة على نحو يصل إلى المتلقّي بكلِّ سلاسة، وجاءت الخطبة محكمة البناء، ومتينة الصياغة، وقد تضافرت أساليب عدّة في إنجاح هذه الخطبة، فاجتمعت لها وسائل الكمال، وامتلكت السيدة فاطمة الزهراء ﷺ أدوات الخطيب البارع في كيفية إقناع السامعين بصدق قضيتها، وقوّة موقفها مستعينة بالحجج المنطقية والبراهين على صوابها.

الكلمات المفتاحية: جزالة الخطاب، الخطبة الفدكية، براعة السبك، السيدة فاطمة الزهراء ﷺ.

Discourse Eloquence and Coinage Dexterity in Fadakya Sermon of Fatima Alzahra

Nasreen Ahamed Youssef Salh[1]

1 University of Aleppo/College of Arts and Humanist Sciences/Dept of Arabic ,Syria ;

nesrmtv@gmail.com

PhD in Arabic Language / Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
1/2/2023	27/2/2023	31/3/2023

DOI: 10.55568/t.v13i25.86-108 | Volume (**13**) Issue (**25**) | Ramadan 1444 H March 2023

CC BY NC

Abstract

The sermon, from the time of the prophethood , had its most important constituents and elements of its success and motives . The present paper tries to examine the various relationships that solidify the parts of speech and describe the methods that control most parts of the sentences , well coined , to mold them in a manner that reaches the interlocutor smoothly . In fact the sermon was well-constructed and well-crafted. Lady Fatima AL-Zahra possessed the devices of a highly skilled orator in convincing the addressees of the truth of her cause and the strength of her position as there are logical arguments and proofs of her right .

Keywords: eloquence of rhetoric, Fadakya sermon, dexterity of cohesion, Lady. Fatima AL-Zahra.

المُقَدِّمَةُ:

إذا كانت حركات التحرّر في العالم قامت لإنصاف المرأة، والمطالبة بتعليمها والحرص على حقوقها، وجعلها امرأةً فاعلةً في المجتمع، فإنَّ الإسلام سبقهم في إنصاف المرأة، والمحافظة على مكانتها. فالإسلام أعلى من مكانتها، وحرص على إيفاء المرأة حقوقها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، ولم يفرّق بينهما إلّا بما تقتضي طبيعة الاختلاف الفكريّ والجسدي بينهما،وكان النبي محمّد ﷺ القدوة في معاملة النساء والتوصية بهن خيراً.

وخير مثال على المرأة المكتملة الأخلاق الجامعة لشؤونها السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام قدوة النساء في الإسلام، وسيدة نساء العالمين، وسليلة بيت النبوّة، وهذا بَدَهِي فقد خصّها الله تعالى بمكانةٍ عليا، وكانت المرأة القدوة، والأحاديث الصحيحة عن مكانتها كثيرة، وشهد لها النبيّ محمّد ﷺ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، وآسيا بنت مزاحم)[١] ، وقال ﷺ:(فاطمة خير نساء أهل الجنة)[٢] ، وفي حديث عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلّم قال:(يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء الأمّة؟)[٣]، وعلى الرغم من مكانتها العليا ابتليت بأمورٍ عظيمة بعد وفاة أبيها النبيّ محمّد ﷺ ، فتعرّضت للظلم وضياع حقّها ولم تُحفظ مكانتها، ومعلومٌ أنّها عانت من الظلم والجور إلى أنْ توفاها الله تعالى بعد ستّة أشهر من رحيل أبيها النبي الكريم ﷺ.

وقد خطبت فاطمة الزهراء عليها السلام خطبتين: الخطبة الفدكيّة في الجامع، والخطبة الصغرى في بعض النساء اللاتي جئن لزيارتها بيتها في أثناء مرضها، طالبت فيهما بحقوقها ومنها حقّها المغتصَب في نِحْلَةٍ وهبها لها أبوها (قرية فدك)، وقد أُخذت منها فيما بعد بحججٍ واهيةٍ لا تمتُّ إلى الصواب والحقّ في شيءٍ، وقد أجادت في هذه الخطبة، وأظهرت جانباً من فصاحتها، وسعة ثقافتها، وعلو شأن علمها، وهذا بَدَهِيٌّ وهي من آل البيت وقدوة نساء العالمين، وقد أبدعت في الخطاب وتنوّع الأسلوب وتشكيله؛ للتعبير عن مقاصدها من غير عناءٍ للمتلقّي

١ الإربلي، بهاء الدين علي بن عيسى, كشف الغمة في معرفة الائمة, ط ٢ (بيروت: دار الأضواء للطباعة والنشر, ١٩٨٥), ٢/ ٧٦.
٢ عيسى, كشف الغمة في معرفة الائمة.
٣ النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف, رياض الصالحين, تحقيق. شعيب الأرناؤوط, ط ٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة, ١٩٩٨), ١٩٧.

سواءً أكان مستمعاً أم كان قارئاً، وذُكرت خطبة فاطمة ﷺ في عدد من المؤلفات، ولدى جمع من المؤرخين والمحدّثين، وهي "من محاسن الخطب وبدائعها، عليها مسحة نور النبوة، وفيها عَبَقَةٌ من أرج الرسالة، وقد أوردها المؤالف والمخالف"[٤]، وجاءت الخطبة بوصفها نظاماً من العلاقات الأسلوبية والأبعاد الدلالية، فكانت مدعومةً بقوّة الحجّة والمنطق السليم غير المنحاز إلى الوجه الشخصي، وجاءت على وفق منظور شمولي لا يستكين إلى الأحكام التأثّرية الانطباعية، واتّصفت بجمال الشكل وجلال المضمون، فكُتب لهذه الخطبة الخلود، ومعلومٌ أنّ "الخطبة لها الحظّ الأكبر من أمر الدين، لأنَّ الخطبة هي شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات"[٥]، وهذه الخطبة مهمّة؛ لأنّها تؤرّخ لمرحلة تاريخية مهمّة إلى جانب الأحداث المهمة التي تخبرنا بها، ولدينا مصداقية النصّ أمام المتلّقي التي تكذّب من ينكر الخطبة ويعدّها منحولة، ففيها بلاغة مستمّدة من بلاغة النبي ﷺ، وفي مضامينها هناك الاعتداد والثقة بالنفس أي الاعتداد بـ(الأنا) خصوصاً مقابل (هم)، فالسيدة الزهراء ﷺ لا تريد أن يباع الدين بالدنيا، فقد أرادوا تكذيبها لكنّها" أفحمت خصومها بلغة قلّ نظيرها، فألقت الحجّة عليهم"[٦]، واللافت للنظر أنّ في الخطبة تعليلاً وقياساً من أمثلة قرآنية، ومعالجة فنّية، وحجاجاً منطقياً مع براهين يقينية لا يمكن الشكّ بها أو مخالفتها.

ولا بدّ من الحديث عن بعض الأساليب البلاغية في أثناء الحديث عن جزالة الخطاب وبراعة السبك فيه.

أوّلاً-أثر الأساليب البلاغية في جزالة الخطاب وبراعة سبكه:

من الأساليب التي أسهمت في إثراء الخطبة، وقوّة السبك، وجزالة الخطاب استعمال السجع في بعض مواطن الخطبة، فبدأت السيدة الزهراء ﷺ باستعمال السجع في بداية الخطبة، وعادةً يحسُن في السجع الازدواج خصوصاً، إذا كانت كلّ فاصلتين على حرف واحد أو أكثر، على ألّا يزيد على أربع حتّى لا يؤدي إلى التكلّف، ومعيار جودته واستحسانه هو الاعتدال، ومن استعمال السجع في الخطبة، قولها ﷺ:

٤ عيسى, كشف الغمة في معرفة الائمة ,٢/ ٢٠١ .
٥ العسكري، أبو هلال, الصناعتين, تحقيق. علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم, ط ٢ (مصر: دار الفكر العربي, ١٩٧١), ١٣٦.
٦ الدوخي، يحيى عبد الحسن, ظلامة الزهراء في روايات أهل السنة, ط ١ (قم المقدسة: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية, ٢٠٠٧), ١٥٣.

"الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر بما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها وإحسان منن أولاها جمَّ عن الإحصاء عددها ونأى عن المجازاة أمدها"[٧]

ومنه: **"وأشهد أنَّ لا إله إلّا الله كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنّى في الفكر معقولها"**[٨].

ومن السجع أيضًا: **"وأشهد أنّ أبي محمّداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، سمّاه قبل أن استنجبه، إذ الخلائق بالغيوب مكنونة، وبستر الأقاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة"**.

وممَّا يلحظ أنّها لم تستعمل السجع في جملٍ كثيرة متوالية، بل استعملت أحياناً جملتين أو ثلاث بقافية واحدة، أي تتفق بالحرف الأخير ثم قطعتها بكلامٍ عادي، وخرجت إلى غيرها، فالجمل الثلاث الأولى اتّفقت آخر كلمة فيها في الحرف الأخير منها، وهذا التنوع بمنزلة قافية داخلية تمثّل حدًّا صوتياً، ويلحظ أنّ الفقرات تختلف طولاً وقصراً، كما تختلف في صيغها الصرفيّة، لكن الفقرات المسجوعة منها تّتصف بقصرها، وهو أفضل نوع من السجع، وهذه الميزة عادةً تكون حَذقاً من الخطيب كي لا يشعر السامع بالملل، أو يتوقع لما سيأتي من الكلام، وهذا الانسجام الذي أدَّاه السجع بين الألفاظ، وفي نهاية المقاطع، أكسب الكلام وقعاً خاصّاً على أذن السامع، وهذا نوعٌ من استغلال الطاقات الصوتية للكلمات.

١-١ أسلوب الالتفات:

الالتفات من الأساليب البلاغية الشائعة في النصوص العربيّة ابتداءً من القرآن الكريم، وتكمن طبيعة الالتفات في" نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر، تطريةً واستدراراً للسامع وتجديداً لنشاطه."[٩] ، ويعمل الالتفات على تنشيط ذهن المتلقي، وحثّه على الانتباه حتّى إنّه يسهم في إبعاد الملل عن المتلّقي من خلال تنويع الخطاب، وقد عدّه ابن المعتز من محاسن الكلام[١٠]، وفي هذه الخطبة كثُر استعمال أسلوب الالتفات، فالخطبة تحوي

٧ المحمودي، محمّد جواد, خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها), (د.ط. دار الحبيب), د.ت.١٢٧_١٣٤.
٨ جواد, ١٢٨.
٩ الزركشي, بدر الدين محمّد بن عبدالله, البرهان في علوم القرآن, تحقيق. أبو الفضل إبراهيم, ط١ (بيروت: دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركائه, ١٩٥٨), ٣/ ٣١٤.
١٠ بن المعتز, عبد الله, البديع, تحقيق. اغناطيوس كراتشكوفسكي, د.ط. (بغداد: مكتبة المثنى, ١٩٧٩), ٥٨.

خطاباً للأنصار والمهاجرين وأبي بكر والسامعين من الناس في المسجد بوجه عام، وابتدأت بالحمد والثناء لله تعالى كما مرّ من أمثلة في أسلوب السجع، فكان الخطاب في بدايته خطاباً للغائب،وبعد ذلك عدلت خطابها إلى استعمال ضمير الأنا المتكلّم، فقد تناوبت بداية الخطاب بين ضمير الغائب والمتكلّم، وهذا نوعٌ من احترام المقامات، فالبداية بالثناء على الله تعالى والشهادة بربوبيته تستدعي هذا التناوب بين الضميرين.

"ثم أنتم عباد الله نصب أمر الله ونهيه، وحَمَلَة دينه ووحيه، وبلغاؤه إلى الأمم"[١١].

بعد ذلك استعملت ضمير المتكلم (نحن) و(نا) الدال على الجماعة وضمير المتكلم (أنتم)، ومن ذلك:**" ونحن بقيةٌ استخلفنا عليكم، ومعنا كتاب الله بيّنةٌ بصائره، وآيٌ فينا منكشفةٌ سرائرهُ، ....ففرض الله تعالى الإيمانَ تطهيراً لكم من الشرك، والصلاةَ تنزيهاً عن الكبر، والصيامَ تثبيتاً للإخلاص، والزكاةَ تزييداً في الرزق، والحجةَ تسليةً للدين، والعدلَ تنسّكاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً (للملّة)، وإمامتنا أمناً من الفرقة، وحبّنا عزّاً للإسلام...فاتقوا الله وأطيعوه"**[١٢]، فقد استعملت (نحن)، وفيه دلالة على التفخيم والمقام العالي لآل البيت في مقابل ضمير المتكلّم (أنتم)، وفي هذا الأسلوب إظهارٌ للتفاوت بين المقامين، فمقام آل البيت هو التشريف في أنَّهم بيت النبوّة، والعصمة، والطهارة، ونزول الوحي، ويمثّلهم النبي محمّد ﷺ ، وكلّ ما جاء به من تعاليم دينه، وبذلك يكون تشريفاً لهم، أمّا المُخاطَبون فعليهم السمع والطاعة والتصديق بما جاء به الله تعالى في قرآنه الكريم، وأن يطيعوا الله تعالى ورسوله الكريم.

ثمّ عادت واستعملت ضمير المتكلم (أنا) موجهةً خطابها إلى الناس على نحوٍ مباشر،ومستعملةً أسلوب النداء(أيُّها) بقولها ﷺ:**" أيُّها الناس أنا فاطمة وأبي محمّد أقولها عوداً على بدء"**[١٣]، وهنا بمنزلة تنبيه للناس واستقطابٍ لعنايتهم لما سيأتي من الكلام.

بعد ذلك مباشرةً خاطبت الفئة المقصودة بقولها ﷺ:

" أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله وراء ظهوركم؟..وزعمتم أن لا حقّ ولا إرثَ لي من أبي، ولا

١١ جواد, خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها) ,١٣٠ .
١٢ جواد, ١٣٠.
١٣ جواد, ١٣٢.

رحم بيننا؟![١٤]"، وهنا نجد نوعاً من المفاجأة للسامع لشدّة الخطاب، وتوجيه الاتّهام المباشر للمُخاطَبين، ونجد أنّ الالتفات لا يقتصر على الانتقال والتنّوع بين الضمائر، بل أيضاً بين الأزمنة، فالأفعال بحيويتها المتمثلة بالأزمنة الثلاثة (الماضي والمضارع والأمر)، والتغيّر الذي يحدث نتيجة ذلك يمثّل سطحياً مخالفة للبنية التركيبية التي تفترض تماثل الأزمنة على وفق السياق، ويكسب الكلام الحيوية والتجدّد.

وفي القسم الأخير من الخطبة عدلت إلى مخاطبة مجلس الأنصار، وجاء خطاب الأنصار مختلفاً عن خطابها لأبي بكر والمهاجرين، فقد خصّتهم بخطابٍ عام في البداية بقولها ﷺ: "**معشر البقية، وأعضاد الملة وحصون الإسلام**[١٥]" وكان خطابها أقلّ حدّة من كلام المهاجرين، ثمَّ عادت وخاطبتهم: "**إيهًا بني قيلة! أأهضم تراثَ أبيَّه وأنتم بمرأى وبمسمع تلبسكم الدعوة، وتمثلكم الحيرة، وعندكم العدد والعدّة..وأنتم الأَولى، نُخبةُ الله التي انتخبَ لدينهِ، وأنصار رسوله وأهل الإسلام**"[١٦]، وكان خطابها للأنصار أقلّ شدّة من خطابها لأبي بكر والمهاجرين، تجلّى فيه العتاب وليس الاتّهام المباشر، فكان الترفّق والتلّطف في بداية خطابهم.

وخطابها هنا أكثر خصوصية تحدّثت فيه عن حقّها المأخوذ، وفيه استنهاض للأنصار للتوجّه صوب الحقّ كما فيه تقدير لمكانتهم، كذلك أن تنوّع الخطاب والضمائر والأفعال في الالتفات يدلّ على قدرة التصدّي لأكثر من فئة أو جماعة، فاستعمال أسلوب الالتفات أكسب السياق حركةً مستمرةً في كلّ فقرات الخطبة، واختزن طاقة تعبيرية كبيرة في هذه الخطبة الجليلة.

١-٢أسلوب الاستفهام:

يعدّ الاستفهام من الأساليب الأكثر شيوعاً في القرآن الكريم والحديث النبويّ، ويعرّف بأنَّه: "استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن..فحصولها هو التصديق وإلّا فهو التصوير"[١٧]، ونجد في الخطبة أنّ الهمزة أكثر استعمالًا من غيرها، فقد

١٤ جواد, ١٣٢.
١٥ جواد, ١٣٣.
١٦ جواد, ١٣٣.
١٧ الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمّد, التعريفات, د.ط. (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر, ٢٠٠٥), ٢٠.

وردت في معظم جمل الاستفهام، عدا ثلاث جمل كان الاستفهام فيها بأدوات أخرى، ومعلومٌ أنّ الهمزة لها الصدارة في الكلام، كما لغيرها من أخواتها، وقد كان مذهب سيبويه تقديمها على حروف العطف، مراعياً أصالتها في أحقية التصدير [١٨]، ومن ينظر إلى الأحاديث النبوية يجد أنّ الهمزة من أكثر أدوات الاستفهام وروداً فيها؛ لأنّها استعملت للتصديق والتقرير، وفي بعض الأحيان للتعيين وهو طلب التصوّر، أي صحّة نسبة المسند للمسند إليه، وهو ما يناسب مقام الأحاديث النبوية وما فيها من موضوعات، وجاءت الهمزة في معظم استعمالاتها في الخطبة استنكاراً أو توبيخاً، وهو "تنبيه السامع حتّى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع"[١٩]، وقد يجتمع التقرير مع التعجب والاستنكار في دلالات الاستفهام المجازية كما رأى الزمخشري[٢٠]، لذلك نجد أنّ السيدة الزهراء ﷺ أكثرت من استعمالها، ومن ذلك:

" أ لله فيكم عهدٌ قدمَّه إليكم؟ ونحن بقيّة استخلفنا؟

أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله وراء ظهوركم؟

أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج نبيه منها؟!

أَأُغْلَبُ على إرثيَ ظلما وجورا؟

أَأُهْضَمُ تراثَ أبيَّهْ وأنتم بمرأى وبمسمع؟[٢١]

يلحظ أنّها استعملت الهمزة في الأمثلة الثلاثة للتوبيخ ولبيان بطلان أفعالهم، ولتبيّن مقدار الظلم الذي لحق بها، وبذلك تجبر المخاطبين على الاعتراف بحقّها المأخوذ، وإقرارهم به، كما أنّ الهمزة في المثال الأوّل والثالث أوحت بالاستهزاء والسخرية منهم، خصوصاً أنّها استعملت الهمزة وذكرت النبي محمّد (صلى الله عليه وآله وسلّم) لتظهر الفرق بين مكانتهم ومكانته، ولم تقل النبي بل أضافت هاء الغائب إلى الكلمة؛ لتظهر مقدار مكانة النبي عند ربّه ومقدار قربه منه(نبيه منها)، وفي المثال الثالث جاءت الهمزة مع جملة (على عمدٍ) التي تبيّن علمهم بأحكام الله، ومع ذلك أخذوا منها حقّها في فدك، والأمثلة الأخيرة كانت أشدّ

١٨ سيبويه ,أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر, الكتاب, تحقيق. عبد السلام محمّد هارون, ط٣ (القاهرة: عالم الكتب, ١٩٨٣), ١٨٧.
١٩ الجرجاني، عبد القاهر, دلائل الإعجاز, د.ط. (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع, ١٩٧٨), ٩٤.
٢٠ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد, تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, ط ١ بيروت: دار الكتاب العربي, (د.ت.) ٢٢٧.
٢١ أحمد, ٢٢٧.

تأثيراً مع ورود الاستنكار مع كلمات(أُغْلَبُ، ظلما جورا إرثيَ، أَهْضَمُ تراث أبيَّه بمرأى وبمسمع)، وتركيب الجملتين تركيب جزل يعطي نبرة قوية مع الاستفهام، وما يلحظ التنوّع في الخطاب كان أيضاً في استعمال الهمزة، فلم يقتصر وجودها مع الفعل أو الاسم بل تنوّع.

أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟! أوَ لست وأبي من أهل ملّة واحدة؟

وهنا حذفت همزة الاستفهام وكانت أم المعادلة بمنزلة قرينة لفظية دالة على وجودها، وأظهرت مدى تنكرهم لمكانتها، وتستعمل هنا الهمزة مع ليس وهي تفيد التقرير، ومعلومٌ أنَّ (ليس) قبل دخول الهمزة عليها تعني نفي مضمون الجملة في الحال، ويرى الزمخشري أنّ ليس بعد الهمزة لإنكار النفي، وإنكار النفي بقصد الإثبات والوجود، ولم يأتِ الاستفهام متتالياً بقصد الإجابة بل بقصد التوبيخ وبيان مدى فعلهم الظالم، ويلحظ أنّ معظم جمل الاستفهام يراد بها تثبيت الخبر وتحقيقه، وإن كان أسلوبه إنشائياً من حيث اللفظ لكنّه خبر من حيث المعنى.

ومن أساليب الاستفهام المستعملة: **لعلّكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي؟**

ويلحظ هنا أنَّ هذه الجملة فيها استفهام يفهم من سياق الكلام، وفيه نوع من الاستهزاء بعلمهم، وإن كان أسلوب الاستفهام غير موجود ظاهرياً من حيث الأدوات الدالّة عليه، لكن لعلّ أدّت أسلوباً يشكّك بكلامهم.

ومن الأساليب الاستفهامية أيضاً: **ماهذه الغَمِيزَةُ في حقّي، والسِّنَةُ في ظُلامتي؟**

جاء اسم الإشارة هنا مع ما الاستفهامية التي تستعمل لغير العاقل، واستعملت هنا استنكاراً لفعلهم ولوماً لهم، واستعملت الغميزة من الحقد، والسنة من الغفلة، فالجملة فيها تكثيف لمعانٍ عدّة تفصح عمّا تشعر به من ظلم.

ومن الاستفهام: **أمَا قال رسول الله المرء يحفظ في ولده؟**[٢٢]

وجاءت أما هنا تفيد التثبيت والتحقيق، فالسؤال هنا لا يراد به إجابة بل يراد به تثبيتاً للقول وإقراراً من السامع وتأكيداً على صحته.

ومنه أيضاً: **فأنّى حِرتُم بعد البيان؟**[٢٣]

٢٢ جواد, خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها) ,١٣٣ .
٢٣ جواد, ١٣٤.

وهنا خرجت عن استفهام المكان لتكون للاستفهام عن الحال، أي تأتي بمعنى كيف كما رأى الزجاجي[٢٤].

١-٣الاقتباس من القرآن والحديث الشريف:

جاء الاقتباس في هذه الخطبة على نوعين: نوع مباشر ونوع غير مباشر، المباشر هو الاقتباس الحرفي ومنه اقتباس بعض آيات القرآن الكريم، فكان ما يقام عليه البرهان في الخطبة هو آيات من القرآن الكريم، إلى جانب ما استعملته من شريف المعاني والألفاظ المقتبسة منه، ونجد ألفاظاً مقتبسةً من القرآن الكريم على نحو غير مباشر، ومن الممكن استخراج آياتٍ من الجمل الموجودة؛ لأنّها تقرّ حقائق وطاعات واجبة وقضايا قائمة في الواقع، ومَن يقرأ الخطبة يدرك أنّ صاحبتها لديها معرفة دينية واسعة لا يمكن أن تصدر إلّا عن شخصٍ من بيت النبوّة في ذلك الوقت، وقد بدأت السيدة الزهراء ﷺ باستعمال الاقتباس من بداية الخطبة، خصوصاً في الفقرة التي كانت تخاطب فيها أبا بكر والمهاجرين،عندما كانت تثبت حقّها المأخوذ، واستعانت ببرهان لا يمكن التشكيك فيه، فكان الحوار منطقيّاً ودعمت صحّة قولها بنصوص مقدّسة، وهذا يعزّز موقفها ممّا يجري، ويدعم حقّها المأخوذ،وقد أكسبت الخطبة إثراءً مضاعفاً لدلالاتها ومقاصدها، ومن هذه الآيات آيتان، الأولى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر ٢٨]، والثانية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٢]، ففي الآية الأولى دعم لمصداقية لكلامها، وليس مجرد موعظة دينية تقال في الخطب بل لها وجودٌ في نصٍ أصيلٍ،وتشدّد بالدرجة الأولى على طاعة الله، وهذا أمر جاء على صيغة الحقيقة، فالطاعة المطلوبة بلا معصية واجبة إلى يوم الدين، وينبغي أن تكون ثابتة ومستمرة، والآية مناسبة لما ستقوله فيما بعد، فمن يطع الله لا يمكن أن يقبل أخذ حقٍّ من عباده، ومع وجود آية فاطر بعدها يصبح المعنى الذي تريد إيصاله مكتملاً، فالعارفون بقدرة الله، والحريصون على طاعته وعدم معصيته، لا يمكن لهم أنْ يخالفوا أوامره أو ينحرفوا عن أمر الدين.

وعندما كرّرت قولها "أيها الناس أنا فاطمة وأبي محمّد.." اقتبست من سورة التوبة بعد

٢٤ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق, حروف المعاني, تحقيق. علي توفيق الحمد, ط ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة, ١٩٨٦), ٣٤.

قولها مباشرة، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨]، واختارت آية تحوي في بدايتها أسلوب توكيد(لقد) بحرفين، وأرادت أن تسبق كلامها الشديد بجملة مهمّة، وهي أنَّ الله تعالى أكرمكم برسولٍ منكم حريصٍ على هدايتكم، ومع ذلك انحرفتم عن أصول الإسلام وعقيدته، وجاء هذا الاقتباس مُختزِلاً ما ستقوله بكلام قويّ له وقعٌ أكبرُ في نفوس المخاطَبين، ومعلومٌ أنّ الاقتباس يسهم في تقوية النص وربط أجزائه، إذا عرف صاحبه اختيار ما هو مناسبٌ لمقام خطابه بحيث يقوي تماسكه، ودواعي استعماله من غير أن يشعر المتلقّي بأنَّه مقحم في النص بلا فائدة ترجى منه، ولذلك نجد أنّ وضع هذه الآيات على نحو متتالٍ لم يكن عبثاً، وهنا تظهر براعة تخيّر الموطن الصحيح المناسب في إضافة الاقتباس.

ثمَّ جاءت السيدة الزهراء ﷺ باقتباسات متوالية من آيات القرآن الكريم تناسب الغرض الذي من أجله قامت الخطبة وعلى نحو مباشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم ٦].

وقد ذكرتْ هاتين الآيتين لتبيّن أحقيّة أن يورِّث الأنبياء أبناءهم، أي بدأت بالتسلسل ووفقاً للمقامات، لذلك كانت البداية من أبناء الأنبياء والسيدة الزهراء بنت النبي محمّد ﷺ، فأحقيّتها لا تختلف عن بقية أبناء الأنبياء، بل تفوقهم لأنَّها كما كرّرت في الخطبة بنت النبي محمّد المصطفى، والمختار الذي ﷺ، وهذه القدرة على ربط المقاطع تحتاج إلى قدرةٍ عالية في صياغة التراكيب والألفاظ والمقاطع.

ثمَّ أكملت التدرّج والتسلسل المنطقي عن أولوية الأرحام وحق الذكر والأنثى بوجه عامّ، ومن هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأنفال ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء١١]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة١٨٠].

موصولةً بـ﴿ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ [الهُمَزَةُ ٦ و٧].

وأنا ابنة﴿ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ ٤٦].

فبعين الله ما تفعلون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء ٢٢٧].

فاعملوا ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [هود ١٢١] ﴿ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [هود١٢٢].

فهذا التسلسل المنطقي في عرض الشواهد القرآنية يؤدّي إلى مضاعفة مكانة الكلام وإكسابه قوة وترابطاً، وتوسّع أبعاده الدلالية، ووجود القرآن في تضاعيف الخطبة يجعلها تربط الفرد بالجماعة والخاص بالعام، ويحوّلها من خطبةٍ عاديةٍ إلى كلام له مكانة عُليا؛ لأنّه من كلام سيدة النساء ﷺ، وتحوي كلاماً مقدّساً في الوقت نفسه، ممَّا يضاعف مصداقيتها،ويقوّي وقع كلماتها، وقد جاءت الخطبة منسجمةً لا يشعر المتلقّي فيها بالتعارض أو الثقل، أي أنّ كلام السيدة الزهراء ﷺ إلى جانب القرآن ينتمي إلى البيئة الثقافية نفسها، وهي بذلك تريد أن تجعل الناس يبنون المعرفة على أساس مفهوم الحقيقة المنطلقة من نصّ يمثّل الحقيقة بلا جدال أو منازع ألا وهو القرآن الكريم، وما يلحظ أنّ كثرة استعمال الأساليب الإنشائية في الخطبة يعود إلى أنّ القضية تثير الانفعال، وتحرّك المشاعر، وتفعل فعل الاستنهاض، فلا بُدّ أن تجتمع فيها العناصر التي تولّد نصاً تتواصل دلالته وتتلاحم أجزاؤه إلى نهايته.

ثانياً- أركان الخطبة الفدكية:

معلومٌ عن فاطمة أنَّها" خطيبة بارعة إذا ما انتبرت المنابر هزّت القلوب والمشاعر،وأنّ خطبتها على جمهرة من المهاجرين والأنصار آية على ثبت بديهيتها وحضور ذهنها"[٢٥]،واستوفت في خطبتها أركان الخطبة بوجه عامّ، وتتّضح أركان الخطبة فيما يلي:

٢-١الديباجة: وهي الركن الرئيس في الخطب بوجه عامّ، فحسن الابتداء يكون بالحمد والثناء وهو بداية الكلام وافتتاحيته، فالانتقال يحتاج إلى براعة في ترتيب الفقرات وارتباط الجمل، وقد بدأت الخطبة بالحمد والثناء على الله تعالى، وأطالت في الثناء على عطاياه التي لا تعدّ ولا تحصى مُقتديةً بخطب أبيها عليها الصلاة والسلام، وهو من أصول الخطب، لذلك "مازال السلف يسمّون الخطبة التي لم يفتتح صاحبها بالتحميد(البتراء)، والتي لم

٢٥ السيد علي عاشور, موسوعة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم, ط ١ (بيروت: دار نظير عبود للنشر, ٢٠١٠),٨/ ٧٢.

تُوشّح بالقرآن والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام (الشوهاء)"[٢٦] ، ومَن يقرأ ديباجة الخطبة،يجد أنّها تتّصف ببراعة الاستهلال، الذي يتمثَّل بالارتباط بهدف الخطابة منذ البداية،وقد استعملت التسلسل المنطقي من الأعلى إلى الأدنى من الخالق إلى نبيه، وبينت مكانته عند ربّه، وكيف اصطفاه الله، وتأثيره في الناس، ثمّ تحدّثت عن تعاليم الإسلام الأساسية، إلى أن وصلت إلى الغرض الرئيس.

٢-٢حسن التخلّص: يلي الديباجة وينبغي تهيأة النفوس في الديباجة لغرض الخطبة،ونستطيع عدّه بداية المقِّدمة وتحضيراً لها، يستعمل فيها عادة (أمّا بعد) و(أيُّها الناس)،وقد بدأت هنا بعبارة" **ثمَّ أنتم عبادَ الله نصب أمر الله ونهيه، وحملة دينه ووحيه،وأمناء الله على أنفسكم وبلغاؤه إلى الأمم**"[٢٧].

٢-٣المقدِّمة: ومَن يقرأ الخطبة الفدكية يلحظ طولها في بعض الفقرات، وغالباً ما تكون الخطب موجزة على نحو أكثر من ذلك، لكنّ الإطالة هنا ليس مبالغاً فيها بل ضروريّة؛لأنّها خطابٌ نبويٌّ من آل بيت النبوّة إلى الناس، ولا بدّ أن تراعى فيها المقامات، وعادةً الموضوعات الدينيّة والحديث فيها يلقى القبول والإصغاء في الخطب أكثر من غيرها، لأنَّ فيها معتقدات ثابتة وتكون النفوس في أثناء ذكر الأمور الدينيّة سريعة الانتباه والانفعال، وعادةً يكون" قصد الخطيب قمع الهوى ومحاولة الصلاح، والهوى حائل قوي دون الحق،...وبمقدار بعد نفوس السامعين عن الاعتراف بالحق ينبغي للخطيب الإبعاد بالمقدِّمات"[٢٨]، وهذا ما حرصت عليه سيدة النساء عليها السلام.

٢-٤الغرض: وهو بيان غاية الخطبة وقصدها المباشر، ومن الممكن أن يخطر ببال القارئ أن يتساءل: لِمَ تذكر فاطمة عليها السلام الفروض والواجبات، وما يقرّه الدين والعقيدة الإسلامية؟ وهي حقائق معروفة للجميع، والجواب هو: أنَّ الموضوع الرئيس للخطبة هو حيادهم عن الحقّ، ووقوفهم مع الباطل، وهذا يخالف تماماً ما جاء به الدين والشريعة الإسلامية، لذلك

٢٦ الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر, البيان والتبيين, تحقيق. عبد السلام هارون, ط ٧ (القاهرة: مكتبة الخانجي, ١٩٨٥), ٢/ ٦.
٢٧ جواد, خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها), ١٣٠.
٢٨ ابن عاشور، محمّد الطاهر, أصول الإنشاء والخطابة, تحقيق. ياسر بن حامد المطيري, ط١ (الرياض: دار المنهاج للنشر والتوزيع, ٢٠١٢), ١٤٤.

أوضحت أنَّ الفرائض والحدود واجبٌ الأخذ بها ولا يجوز مخالفتها، فحال معظم القوم، وعدم ثباتهم على الإيمان، وتفاوتهم فيه، استدعى إعادة ذكر هذه التعاليم للوعظ والتذكير، وللحفاظ على سلامة الدين من الانحراف نحو الباطل.

٢-٥البيان: وهو بيان الغرض من الخطبة والحديث عنها على نحو مباشر، وإقامة الحُجّة على صحته وأحقّيته، وكان استدلالها بالقرآن الكريم؛ لأنّه نصٌّ يقينيٌّ لا يمكن رفضه أو تكذيبه من خصومها، ومعرفتها وعلمها الواسع يدلّان على أنَّها فعلاً بضعةٌ من النبي صلى الله عليه وآله كما جاء في الحديث الصحيح[٢٩]، وهو تأكيدٌ على جهلهم بأحكام القرآن الكريم وبطلان زعمهم في مقابل سعة علمها.

٢-٦خاتمة الخطبة: ويكون فيها الكلام خلاصة لما تقدّم، "ويحسُن فيها أنْ تكون كلاماً جامعاً لما تقدّمه، أو إشارة إلى أنَّه قد أتى على المقصود وانتهى منه، أو أمراً بالتثبيت أو دعاءً."[٣٠].

ثالثاً-آليات الجزالة والسبك:

تتحقّق جزالة الخطاب من أمور عدّة تتضافر مع بعضها لتنتج نصًّا قَويًّا متميّزاً منها ما ذكر سالفاً، وهي الأساليب البلاغية، وإذا أردنا أن نعطي مثالاً على تضافر هذه الأساليب معاً من الخطبة، فخير مثالٍ هو فِقْرة خطاب أبي بكر والمهاجرين، وقد استعملت فيها السيدة الزهراء أساليب عدّة، وهذا يرجع لأهمية الحدث ويقوِّي الخطبة، ويشدّ الانتباه نحو المتكلّم خصوصاً أنّ السيدة الزهراء عليها السلام تتكلّم عن حقٍ مأخوذٍ من بيت النبوّة، فقد بدأت بأسلوب الالتفات والاستفهام كما ذكرنا سالفاً، وأضافت أسلوب التقديم والتأخير، فقدّمت الجار والمجرور (أفعلى عمدٍ) وسبقته باستفهام استنكاري، ثمّ جاءت الجملة الفعلية، وهذا التقديم والتأخير يدين المخاطَبين على نحوٍ أقوى وأشدّ تأثيراً، ورأى سيبويه أنّ للتقديم والتأخير غايات لمنفذيه و"إنَّما يقدَّمون الذي بيانه أهّم لهم، وهم ببيانه أعنى"[٣١]، ثمَّ بدأت على نحوٍ مباشر واقتبست من القرآن الكريم، وبدأت بذكر الآيات القرآنية التي تثبت حقّها في فدك، وذكرت الآيات التي تخصّ الأنبياء دون غيرهم في البداية، ثمّ تدرجت كما ذكرنا في أسلوب الاقتباس، حتّى تؤكّد صحّة حُجّتها ويقين مطلبها.

٢٩ البخاري، محمّد بن إسماعيل, صحيح البخاري بيروت: دار الفكر), د.ت ٤/ ٢١٠(..
٣٠ الطاهر, أصول الإنشاء والخطابة ,١٤٩ .
٣١ سيبويه, الكتاب ,١/ ٣٤ .

وهنا تظهر براعة استعمال الأفعال والصيغ نحوياً، فاختيار الفعل المضارع مع الفعل الماضي وفقاً للمعنى، والانتقال للتنوّع والتناوب في أسلوب الجملة من الفعلية إلى الاسمية حسب مقتضى الحال، مع أنّ الجمل الفعلية طغت على الاسميّة؛ لأنّ سياق الحدث والموضوعات تطلّب استعمال الأفعال التي طغت على النَّصِّ، إلى جانب إشراك الماضي مع المضارع في بعض الأحيان إيحاءً باستمرارية الحدوث وعدم انقطاعه، ويعود ذلك إلى الحاجة لبيان سلوكهم ومواقفهم التي حادوا فيها عن طريق الحق، ونجد استعمال الجمل الإسمية للإخبار عن حقائق ثابتة لا يمكن تغييرها، والخطبة في براعة سبكها تشبه تماماً ما أوضحه الجرجاني في تشبيهه واضع الكلام حيث يقول:" واعلم أنَّ واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضّة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة."[٣٢].

ومن الأمور التي أكسبت الخطابة جزالة وبراعة في السبك هي قوّة الألفاظ وسهولة فهمها في الوقت نفسه، والجزالة "شِدّة في المعنى تقرب من حدّ الإرهاب، أو تبلغه، بحيث تؤذن بعدم مبالاة المتكلّم باستعطاف المخاطب ولا بملاينته، ولها مواقع الغضب، والحماسة، والوعظ، والعتاب، ونحوها"[٣٣]، لذلك جزالة الخطاب وبراعة السبك لا تخصّ الكلمة فحسب، بل تخصّ سياق النَّصِّ ومناسبته، وتأتي الفصاحة من أهم مقوّمات الخطبة، فلا نجد كلمةً ثقيلةً على السمع بل منسجمةً مع سلامة الذوق العربي، والوضوح أكثر سمةٍ رافقت المفردات الدينية، وجاءت ألفاظ معظم الخطبة مقتبسة من القرآن على نحو غير مباشر، فهي لا تقول إلّا كلاماً موزوناً له مثله في النصّ القرآنيّ، وجاءت الخطبة بنسقٍ لغويٍّ متكاملٍ من خلال نسيجٍ لغويٍّ مترابط الأجزاء، وتميّزت بالسليقة اللغوية ولا عجب في ذلك وهي ابنة أفصح العرب وقدوتهم.

وقد حرصت السيدة الزهراء ﷺ على انسجام الألفاظ وتناسبها، مع أنّ الخطبة تنوّعت في موضوعاتها ومقامات المخاطَبينَ فيها، فكان هناك تفاضلٌ في الألفاظ، وهذا التفاضل عادةً لا يكون من حيث إفرادها وتجريدها "وإنَّما الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة

٣٢ القاهر, دلائل الإعجاز ,٤١٢_٤١٣ .
٣٣ الطاهر, أصول الإنشاء والخطابة ,٨٥ .

لمعنى التي تليها"[٣٤]، واتّصفت الكلمات بالوضوح، والخلوِّ من التعقيد والغموض واللبس، فقد راعت مقتضى الحال، وقد نبّهت في خطابها أنّ أهل البيت قدوة في الدين وتطبيق أركان الإسلام، فذكرت ذلك بقولها: **"طاعتنا نظاماً للملّة وأمناً من الفرقة وحبناً عزّاً للإسلام."**

وظهرت براعة السبك في أجزاء الخطبة كلّها، ويعرّف السبك بأنّه: "خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كلّ جملة مكونة للنَّصِّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى"[٣٥]، وتظهر قوة السبك من خلال أشياءٍ عدّة، ونلحظ أنّ الربط وترتيب الكلمات لا يقتصر على الشكل فحسب، بل أيضاً المضمون وعلاقة كلّ كلمة بأختها؛ أي ترابط الجمل في السياق، فعلى سبيل المثال:" **وأشهد أنّ أبي محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ اختاره قبل أن يجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبِستر الأهاويلِ مصونةٌ،...عِلْماً من الله بمآيل الأمور، وإحاطةً بِحوادث الدهور، ومعرفةً بمواضع القدور.**"[٣٦].

وهنا ربطت السيدة الزهراء ﷺ جملة التوحيد والشهادة بالإخلاص في تأويلها، وفرض معناها شكلاً ومضموناً، فلا يمكن إلّا أن تأتي الشهادة بالإخلاص قولاً وفعلاً، لذلك ربطتها بالعقل والقلب معاً، وتكرار جملة (فاطمة بنت محمَّد) فيه تحفيز وقوّة وتحريك للهمَّة، ولا ننسى ما للتكرار من أثرٍ في التعبير عن التجربة الشعورية، وهنا فيه نوع من الاعتزاز بالانتساب إلى بيت النبوَّة، وفي تكرارها للمّرة الثانية أحدثت وقعاً مؤثّراً في النفوس، وشعوراً بالمسؤولية وتعبيراً عن قوّتها، فهي ليست إنسانة عادية، فخطبتها ﷺ أظهرت علوَّ مكانتها، وكبرياءها وثبات عزيمتها في إنصاف الحق ضد الباطل، إلى جانب الابتداء(علماً) باسم منصوب في الجملة التالية، وجاءت الكلمة نكرة وفي صيغة المصدر؛ لأنّها تتعلق بقدرة الله تعالى التي تفوق كلّ قدرة، وتجلّيها في الكون، وبعدها جاء الفعل الماضي للدلالة على قدم الإرادة الإلهية وأولويتها.

ومن براعة السبك أيضاً:" **ألا وقد قلتُ الذي قلتُ على معرفةٍ منّي بالخذلان الذي خامر صدوركم، واسْتَشْعَرَتْهُ قلوبُكم، ولكن قُلْتُهُ فيضة النفس ونفثة الغيظ وبثَّة الصدر، ومعذرة**

٣٤ القاهر, دلائل الإعجاز ,٤٦ .
٣٥ فضل، صلاح, بلاغة الخطاب وعلم النص, د.ط. (الكويت: عالم المعرفة, ١٩٩٢), ٤٤.
٣٦ جواد, خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها) ,١٢٩ .

الحُجَّة، فدونكهما فاحتقِبوها مدبرة الظهر، ناكبة الحقِّ، باقيةَ العارِ، موسومةً بِشنار الأبدِ"[٣٧].

ابتدأت خاتمة الخطبة بالحرف(ألا) الذي أفاد التنبيه على الإخبار الذي أتى بعده في الكلام، وقد اتصفت نهاية الخطبة بتناسب العبارات، وسهولة الكلمات وقوّتها ومتانتها في الوقت نفسه، أي حسن التأليف فجاءت كلّ كلمة في موقعها، ممَّا أضفى على الكلام سلاسةً وانسياباً ونسقاً تعبيرياً مميّزاً، وجعلها أكثر تماسكاً على الرغم من اختلاف معانيها، إلى جانب الإصابة في وصف الحدث، فاستعملت اسم فعل الأمر(فدونكموها) مع فعل الأمر (فاحتقِبوها) ليضفي قوةً على المعنى، ويضاعف شدّة قبح الصورة التي اختارتها في نهاية خطابها؛ لتصف العار الذي يحملوه للأبد لأنّهم وُصِمُوا به، فالفعل هنا غير إنساني لأنَّ الاحتقاب يكون لما يشدّ على البعير، أو لارتكاب الذنب وحمل الإثم، وقد اتّصفت الخطبة بتناسب العبارات، وسهولة الكلمات وقوّتها ومتانتها في الوقت نفسه، أي حسن التأليف فجاءت كلّ كلمة في موقعها، ممَّا أضفى على الكلام سلاسةً وانسياباً ونسقاً تعبيرياً مميّزاً، وجعلها أكثر تماسكاً على الرغم من اختلاف معانيها، إلى جانب الإصابة في وصف الحدث، وقد جمعت السيدة الزهراء في خطابتها بين العلم والأدب من خلال سلاسة الأسلوب، ونصاعة البيان، وثراء اللُّغة، وهذا الغنى لا نراه إلّا في خطب أهلّ النبوَّة، ومعلومٌ أنّ الكلام "يحسُن بِسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه"[٣٨]، وقد ورثت كلّ بلاغة أبيها وفصاحته، وكان عرضها للقضية عرضاً متوازناً منطقياً، فاعتمدت أسلوباً واضحاً، واتّصفت بالموضوعية وجعلت الخطاب متدرِّجاً على نحو تصاعدي، بدأت من التعميم لتنتقل إلى التفصيل، ثم وجَّهت خطابها إلى الناس بوجهٍ عام، ومالهم وما عليهم من فروض وواجبات دينية، وذكرت أركان الإسلام الخمسة، ثمَّ ذكرت القيم الدينية التي حضَّ عليها الإسلام، لتبيَّن التباين الناتج عن تفاوت الإخلاص والكفاءات.

إنَّ ما طالبت به السيدة الزهراء ﷺ واضح، وهو سلامة العقيدة والتجرد عن الهوى

٣٧ جواد, ١٣٤.
٣٨ هلال, الصناعتين , ٥٥ .

والبعد عن المحرمات، فمن الله تعالى وكتابه كتاب الحقّ والحكمة ولا طريق إلى الحق إلّا طريق الله، ففيه حقيقة الدين وأصول العقيدة والأحكام والسُّنة التي جاء بها النبيّ محمّد ﷺ وهي المبينة لحقائق ومقاصد العقيدة، فجاء القرآن لتحقيق عبودية الله وحفظ الحق ودفع الباطل، وأكّدت الارتباط الوثيق بين الشريعة والقرآن فهو ارتباط الفرع بالأصل، وجاءت بلاغة القول في هذه الخطبة عفو الخاطر وهي نتاج وضع نفسي عانته السيدة الزهراء ﷺ، وقد وصلت إلى مرحلة أثقلتها الهموم حتى غدت الحاجة ملحة لإلقاء هذه الخطبة، فكانت "صرخة نصرة الحقّ وإبطال الباطل"[٣٩].

٣٩ الآراني، مهدي خدّاميان, صرخة النور, ط١ (قم، ايران: دار الغدير, ٢٠١١), ١١٥.

الخاتِمــة:

لقد برعت سيدة النساء ﷺ في تقديم هذه الخطبة شكلاً ومضموناً على نحو يقرّبها من القلب، ويحبّبها إلى نفس المتلقّي، وقد اتّسمت بوضوح المعاني خصوصاً، أنّها وليدة تجربةٍ ذاتيةٍ،

وهدفها نقديٌ إصلاحيٌّ، تكلّمت فيها عن قضايا مصيرية، كان نقدها عميق الأسلوب وفيه دعوة إلى الصحوة، واقتراح لإصلاح العيوب مدعوم بحجج منطقية من القرآن الكريم، وظهرت جرأة فاطمة في هذه الخطبة، وقد اختارت وقت اجتماع المصلّين في المسجد؛ لأنَّها تريد أن يسمعها الكمّ الأكبر من الناس، وجعلتها خطبة عامّة وحرصت على احترام الذات، فضربت لها ملاءة في المسجد، ولم تُرِدِ الظهور علناً؛ لأنَّها جاءت لحاجة مُلِحَّة وليس لتعرض نفسها، وقد بدأتها كما يبدأ الملوك والسلاطين، ولم تقلّ بلاغتها عن أصحاب الخبرة في اللُّغة، وأثبتت فصاحتها وانتماءها لسلالة عريقة من بني هاشم، إنَّ قوة شخصية فاطمة وجرأتها وحريتها وفصاحتها تنمّ بالمكانة الكبرى التي كانت تتمتَّع فيها المرأة في الإسلام، وعلى الرغم من مقدار الحزن الذي يملأ قلبها نتيجة الأحداث المأساوية التي بدأت مع وفاة أبيها، فإنَّ مَن يقرأ خطبتها وحجاجها يشعر بقوتها وثقتها النابعة من إيمانها الراسخ المتأصِّل في قلبها؛ لأنَّها حركة استنهاض ضد الظلم الإنساني أيّا ما كانت مكانة الظالم ومرتبته، جعلت الناس في حالة ذهول وصمت ومراجعة للنفس على سكوتهم عن الحق، وهي ثورةٌ للدفاع عن أصحاب الحق، وثورةٌ أيضاً للدفاع عن سلامة الدين والعقيدة، وتجلَّت بلاغة الموقف وجزالة الخطاب وقوة السبك عند فاطمة ﷺ في قوّة الرَّدِّ والتعاطي مع القضية، من خلال ترتيب الخطاب من الخاصّ إلى العامّ، ومن الفرد إلى الجماعة ومن الخالق إلى المخلوق، وهذه الحكمة بالكلام لا يمكن إلّا أن تخرج من بيت النبوة، ممَّا يدحض قول كلّ مَن يحاول تكذيب انتساب الخطبة لسيدة النساء فاطمة الزهراء ﷺ، وجاء الكلام في الخطبة فصيحاً بليغاً، فكان جيّد السبك لا تكلّف فيه جمع الفخامة مع الجزالة، وهناك حركة وحيوية تأتي من تنوّع الأساليب، فخطبتها تمثّل السهل الممتنع، وقد امتلكت أدوات الخطيب الماهر في كيفية إقناع السامعين بصدق قضيتها، وقوة موقفها مستعينة بالحجج المنطقية

والبراهين على صوابها، ومع أنَّها ألقت الخطبة من وراء حجاب إلّا أنَّ تأثيرها لم يقل عن تأثير الخطيب المكشوف، وقد اجتمعت في هذه الخطبة موضوعات عدّة وإنْ لم تكن كلّها على نحو مباشر، ففيها موضوع سياسيّ ودينيّ واجتماعيّ، فالسياسيّ يشير إلى قضية الخلافة التي تتّصل بالإمامة، وعدم العدل في قضية (فدك)، وبذلك يكون الموضوع دينيًّا لاتّصاله ببيت النبوّة وغياب العدل، فالظلم ممّا يحرمه الإسلام وترفضه العقيدة، وقضية اجتماعية لأنّه يحرم شريحة من المجتمع من نيل حقوقها، خصوصًا أنّ فدك كانت تعيل فقراء ممَّا يُنْتِجُ محصولها، وتوزِّعه السيدة الزهراء ﷺ بينهم، ومعلومٌ أنَّ فدك كانت ترتبط بسلسلة من القضايا، ومع ذلك فيها تماسك في ربط الموضوعات، وتحويلها إلى موضوعٍ واحدٍ.

لذلك لم تكن خطبةً عاديةً إنّها صرخةٌ ضد الظلم، ووقوفٌ في وجه الفساد وهدر الحقوق، وهي صرخة الحرّة التي لم تكن لتحيد عن الحق، وهي ابنة شفيع العالمين يوم القيامة الذي ابتلاه الله حتّى بعد موته، وفي مطالبتها بـ(فدك) بعد نظر، وحفظ لكتاب الله وسنَّة رسوله، وكشف الطمع بالخلافة وانتشار الفساد.

كانت الخطبة متكاملةً وهذا ما حرصت عليه قدوة نساء المسلمين، ونستطيع القول: إنّ هذه الخطبة مصدرٌ للخطب التي جاءت من بعدها من حيث تكامل الأركان، والأساليب المستعملة، وفصاحة اللُّغة، ولا يمكن اختزالها ببضعة صفحات، فمن الممكن كتابة دراسة عنها في كتاب كامل عن الخطبة، وغناها بالأساليب البلاغية، والأدوات النحوية، والتركيبية وتفصيلها ما أمكن.

المصادر:

القرآن الكريم

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ط ١. بيروت: دار الكتاب العربي, د.ت.

الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق. حروف المعاني. تحقيق. علي توفيق الحمد. ط ٢. بيروت: مؤسسة الرسالة, ١٩٨٦.

البخاري، محمّد بن إسماعيل. صحيح البخاري. بيروت: دار الفكر, د.ت.

الدوخي، يحيى عبد الحسن. ظلامة الزهراء في روايات أهل السنة. ط١. قم المقدسة: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية, ٢٠٠٧.

ابن عاشور، محمّد الطاهر. أصول الإنشاء والخطابة. تحقيق. ياسر بن حامد المطيري. ط١. الرياض: دار المنهاج للنشر والتوزيع, ٢٠١٢.

الجرجاني، عبدالقاهر. دلائل الإعجاز. د.ط. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع, ١٩٧٨.

بن المعتز, عبد الله. البديع. تحقيق. اغناطيوس كراتشكوفسكي. د.ط. بغداد: مكتبة المثنى, ١٩٧٩.

الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق. عبد السلام هارون. ط ٧. القاهرة: مكتبة الخانجي, ١٩٨٥.

المحمودي، محمّد جواد. خطب سيدة النساء فاطمة الزهراء(مصادرها وأسانيدها). د.ط. دار الحبيب, د.ت.

الآراني، مهدي خدّاميان. صرخة النور. ط١. قم، ايران: دار الغدير, ٢٠١١.

سيبويه, أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تحقيق. عبد السلام محمّد هارون. ط٣. القاهرة: عالم الكتب, ١٩٨٣.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. رياض الصالحين. تحقيق. شعيب الأرناؤوط. ط ٣. بيروت: مؤسسة الرسالة, ١٩٩٨.

صلاح, فضل،. بلاغة الخطاب وعلم النص. د.ط. الكويت: عالم المعرفة, ١٩٩٢.

عاشور, السيد علي. موسوعة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ط ١. بيروت: دار نظير عبود للنشر, ٢٠١٠.

الزركشي، بدر الدين محمّد بن عبدالله. البرهان في علوم القرآن. تحقيق. أبو الفضل إبراهيم. ط١. بيروت: دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركائه, ١٩٥٨.

الإربلي، بهاء الدين علي بن عيسى. كشف الغمة في معرفة الائمة. ط ٢. بيروت: دار الأضواء للطباعة والنشر, ١٩٨٥.

الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمّد. التعريفات. د.ط. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر, ٢٠٠٥.

العسكري، أبو هلال. الصناعتين. تحقيق. علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم. ط ٢. مصر: دار الفكر العربي, ١٩٧١.

References:

Holy Quraan

Al-'Askari, Abu Hilal. Al-Sana'atayn. Tahqiq. 'Ali Muhammad Al-Bijawi wa Muhammad Abi Al-Fadl Ibrahim. T2. Misr: Dar Al-Fikr Al-'Arabi, 1971.

Al-Arani, Mahdi Khaddamian. Sarkhat Al-Nur. T1. Qum, Iran: Dar Al-Ghadir, 2011.

Al-Bukhari, Muhammad ibn Isma'il. Sahih Al-Bukhari. Bayrut: Dar Al-Fikr, n.d.

Al-Dukhi, Yahya 'Abd Al-Hassan. Zulumat Al-Zahra' fi Riwayat Ahl Al-Sunna. T1. Qum Al-Muqaddasa: Mu'assasat Al-Kawthar lil-Ma'arif Al-Islamiyya, 2007.

Al-Harani, n.d.

Al-Irbili, Bahauddin 'Ali ibn 'Isa. Kashf Al-Ghumma fi Ma'rifat Al-A'imma. T2. Bayrut: Dar Al-Azwaa' lil-Tiba'a wal-Nashr, 1985.

Al-Jahiz, Abu 'Uthman 'Amr ibn Bahr. Al-Bayan wal-Tabyin. Tahqiq. 'Abd Al-Salam Harun. T7. Al-Qahira: Maktabat Al-Khanji, 1985.

Al-Jurjani, 'Abd Al-Qahir. Dalail Al-I'jaz. D.T. Bayrut: Dar Al-Ma'rifa lil-Tiba'a wal-Nashr wal-Tawzi', 1978.

Al-Jurjani, Abu Al-Hasan 'Ali ibn Muhammad. Al-Ta'rifat. D.T. Bayrut: Dar Al-Fikr lil-Tiba'a wal-Nashr, 2005.

Al-Mahmudi, Muhammad Jawad. Khutab Sayyidat Al-Nisa' Fatimat Al-Zahra' (Masadiruha wa Asaniduha). D.T. Dar

Al-Nawawi, Abu Zakariya Muhyi Al-Din Yahya ibn Sharaf. Riyad Al-Salihin. Tahqiq. Shu'ayb Al-Arna'ut. T3. Bayrut: Mu'assasat Al-Risala, 1998.

Al-Zajjaji, Abu Al-Qasim 'Abd Al-Rahman ibn Ishaq. Huruf Al-Ma'ani. Tahqiq. 'Ali Tawfiq Al-Hamd. T2. Bayrut: Mu'assasat Al-Risala, 1986.

Al-Zamakhshari, Abu Al-Qasim Mahmud ibn 'Amru ibn Ahmad. Tafsir Al-Kashaf 'an Haqa'iq Al-Tanzil wa 'Uyun Al-Aqawil fi Wujuh Al-Ta'wil. T1. Bayrut: Dar Al-Kitab Al-'Arabi, n.d.

Al-Zarkashi, Badr Al-Din Muhammad ibn 'Abd Allah. Al-Burhan fi 'Ulum Al-Qur'an. Tahqiq. Abi Al-Fadl Ibrahim. T1. Bayrut: Dar Ihya' Al-Kutub Al-'Arabiyya 'Isa Al-Babi Al-Halabi wa Shuraka'ihi, 1958.

Ashur, Al-Sayyid 'Ali. Mawsu'at Fatimat Al-Zahra' bint Rasul Allah salAllahu 'alayhi wa sallam. T1. Bayrut: Dar Nazir 'Abbud lil-Nashr, 2010.

Ibn 'Ashur, Muhammad Al-Tahir. Usul Al-Insha' wal-Khitaba. Tahqiq. Yasir ibn Hamid Al-Mutayri. T1. Al-Riyadh: Dar Al-Minhaj lil-Nashr wal-Tawzi', 2012.

Ibn Al-Mu'tazz, 'Abd Allah. Al-Badi'. Tahqiq. Ignatius Kratchkovsky. D.T.

Baghdad: Maktabat Al-Muthanna, 1979.

Salah, Fadl,. Balaghat Al-Khitab wa ‘Ilm Al-Nass. D.T. Al-Kuwayt: ‘Alam Al-Ma‘rifa, 1992.

Sibawayh, Abu Bishr ‘Amr ibn ‘Uthman ibn Qanbar. Al-Kitab. Tahqiq. ‘Abd Al-Salam Muhammad Harun. T3. Al-Qahira: ‘Alam Al-Kutub, 1983.